في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
٣

في ظلال القرآن

في الميزان

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار عمار

في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
٣

في ظلال القرآن

في الميزان

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار عمار

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٠/٤/١٥٨٤)

رقم التصنيف : ٢٣٢,٦

المؤلف ومن هو في حكمه : صلاح عبدالفتاح الخالدي

عنوان الكتاب : في ظلال القرآن في الميزان

الموضوع الرئيسي : ١- القرآن الكريم - تفسير

بيانات النشر : عمان: دار عمار

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية.

دار عمار

الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب المسجد الحسيني

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فقد مضى على إعداد هذه الدراسة حوالي عشرين سنة، حيث كانت في أصلها رسالة الدكتوراة التي بدأت بإعدادها عام ١٩٨١م-١٤٠١هـ، وكانت بعنوان «في ظلال القرآن دراسة وتقويم» وتمت مناقشة الرسالة عام ١٩٨٤-١٤٠٥هـ، والحمد لله.

ولما أردت طبع الرسالة قسمتها إلى ثلاثة كتب، من باب تسهيل الأمر على القراء، هي: مدخل إلى ظلال القرآن، والمنهج الحركي في ظلال القرآن، وفي ظلال القرآن في الميزان.

وصدرت الطبعة الأولى من هذه الدراسة قبل خمسة عشر عاماً عن دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة واستقبلها القراء استقبالاً حسناً ولله الحمد.

ونفدت نسخ الكتب الثلاثة من فترة، وبحث عنها القراء في المكتبات، وراجعني بعض الإخوة يحثونني على إعادة طبعها، وأنا أُسَوِّفُ وأُؤَجِّل.

وهممت أن أجمع الكتب الثلاثة في كتاب واحد، في مجلد أو مجلدين، ثم صرفت النظر عن ذلك، واستقر رأيي على إبقائها على ما هي عليه، ليكون الأمر أيسر على القراء الكرام.

وقد عهدت بهذه الطبعة الثانية إلى دار عمار للنشر والتوزيع في عمان، بعد إجراء مزيد من التنقيح والتصحيح عليها، راجياً من القراء دعوة صالحة، وسائلاً الله حسن القبول، وطالباً منه الأجر والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإثنين ٢٠/ ١/ ١٤٢١هـ

٢٤/ ٤/ ٢٠٠٠م

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد:

فإن «في ظلال القرآن» من أهم التفاسير لكتاب الله تعالى، وإنه يمثل لوناً جديداً في التفسير، ونقلة بعيدة فيه، وأساساً لمدرسة جديدة فريدة متميزة في التفسير هي مدرسة «التفسير الحركي»... وإن سيد قطب يقف بظلاله رائداً للفكر الإسلامي المعاصر، ومجدداً في موضوعات أساسية في التفسير...

وقد أثر «الظلال» أثراً ملحوظاً في الفكر الإسلامي المعاصر بجميع جوانبه ومجالاته.. سواء في التفاسير التي ظهرت بعد الظلال والتي نحت منحاه وادعت التفرد والإضافة، أو في الكتب الفكرية الإسلامية التي ناقشت موضوعات وقضايا معاصرة موجودة في الظلال، أو في الكتب الحركية والدعوية التي اهتمت بالمعاني الخاصة بفقه الدعوة والحركة.. كما تأثر بالظلال تأثراً كبيراً كتاب مقالات إسلامية في مجلات إسلامية. أو معدو أبحاث إسلامية في الدراسات الجامعية.. وما أظن مدرساً إسلامياً في المدارس أو واعظاً وخطيباً في المساجد، أو محاضراً إسلامياً في المجامع إلا وله مع الظلال قراءات ومطالعات وجلسات في مختلف الأوقات..

وإن كثيراً من الكتاب والمتحدثين يعترفون بمنزلة الظلال، ويشيدون به، ويشيرون إليه، ويحيلون عليه من باب المنهجية والأمانة العلمية.. ولكن بعضاً

من هؤلاء يتأثر بالظلال ويأخذ عنه ولا يشير أو يحيل، ويدعي لنفسه ابتكار الأفكار والآراء التي سطا عليها في الظلال!!!..

والأعجب في ميدان البحث والكتابة أن نجد كاتباً يسعى ليكون كاتباً ومؤلفاً مشهوراً ولكن على حساب الظلال، فيسطو على فكرة من أفكار سيد قطب فيه، يكون سيد قد ناقشها بإيجاز قاصد مناسب، فيشبعها هذا الكاتب توسعة و «مطاً» و «تطويلاً» حتى تملأ كتاباً يظهر به على الناس، مدعياً الأصالة والذاتية الفكرية.. وتكون هذه العملية «التجارية» دون معالجة سيد الموجزة في الظلال بدرجات ودرجات!!.

هذا ولا ننكر أن بعض المسلمين وقفوا من الظلال موقفاً عدائياً، وأطلقوا عليه شبهات. واتهموا صاحبه اتهامات، وبعض هؤلاء ـ ممن ولي منصباً علمياً أو تدريسياً ـ صار يحذر الدارسين والباحثين من قراءة الظلال، وتضييع أوقاتهم ـ الثمينة ـ معه.. بل إن أحد هؤلاء قال كلمة بعدما قرأ الظلال أو معظمه: لقد ندمت على قراءتي للظلال، وتحسرت على الوقت الضائع الذي استغرقته القراءة... فمن هؤلاء من يعتبر الظلال ليس كتاباً في التفسير، ولا يصح أن يدرج ضمن التفاسير، وبعض من يضع المناهج الدراسية للكليات والجامعات من هؤلاء يحرص على استبعاد الظلال من المراجع الأساسية أو الثانوية لمادة التفسير، ويستعيض عنه بتفاسير يعلم المحققون من الدارسين والمبصرون من الباحثين منزلتها بين كتب التفسير، ودرجتها في قائمة التفاسير.. وقد ناقشنا هذا الأمر، وبينا منزلة الظلال بين كتب التفسير في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن» ولله الحمد والمنّة..

لقد أثار الظلال ضجة في مختلف الأوساط الإسلامية، واختلف استقبال المسلمين والإسلاميين له، فالأغلبية المطلقة من هؤلاء أقبلت عليه وأفادت منه ـ كما سبق أن أشرنا ـ وبعض قليل منهم عاداه ورفضه، وبعض قليل أثار حوله شبهات باطلة، واتهامات متجنية، وأصدر عليه أحكاماً ظالمة، واتهم صاحبه في عقيدته واتزانه ومنهجه وأفكاره واستنتاجاته وأحكامه.. وبعض قليل تطرف إلى الجهة المقابلة فادعى لصاحبه العصمة والقداسة، وادعى للظلال الصواب المطلق والحق التام.. وبعض قليل لم يفهم على الظلال ـ أو لم يرد أن يفهم ـ فخرج بأحكام وآراء واجتهادات خاطئة ـ بيّنّ خطؤها ـ وادعى نسبتها إلى سيد قطب

ووجودها في ظلاله، وتوكأ على عبارات في الظلال زعم دلالتها على رأيه الباطل واجتهاده المرفوض..

نسب المغالون إلى سيد قطب أنه «يكفر» المسلمين الذين لم ينتظموا في «جماعة المسلمين». وأنه يلغي الأحكام الشرعية، ويعود بالمسلمين إلى العهد المكي. وأنه ينادي بانعزلة الحسّية المادية عن الناس، و«الهجرة» إلى الكهوف والجبال، وأنه يحرم العمل في الوظائف الحكومية، والدراسة في المعاهد والجامعات الحكومية... و... و... وغير ذلك، وزعموا وجود هذه «السخافات» في الظلال...

واتهم المغرضون والشانئون سيد قطب بأنه زائغ العقيدة، وأنه ليس من أهل السنة والجماعة بل هو أشعري معتزلي جبري جهمي معطل رافضي خارجي...، وأنه يؤول صفات الله وينكرها ويعطلها، وأنه يقول بوحدة الوجود، وأنه لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه، وأنه مبتدع في قوله بالألوهية والربوبية وفهمهما وبيان معناهما، وأنه مبتدع في فهمه للحاكمية بل وإطلاقها والمناداة بها، وأنه يرى أن الناس الآن جميعاً جاهليون كفار لوجودهم في مجتمعات جاهلية، وأنه من ثم يكفر المسلمين المعاصرين. وأنه ينادي بالعزلة المادية ومفاصلة المسلمين الآخرين وإيقاع مذبحة في كل بيت.. وأنه يعادي الفقه الإسلامي ويطالب بإلغائه ويحرم دراسته وتدريسه والالتزام به، وينشىء فقهاً خاصاً يسميه «فقه الحركة». وأنه يرى أن بلاد المسلمين الآن كلها دار حرب، وأن علاقة المسلم بها هي الحرب بكل صورها وأشكالها، ويجري على هذه البلاد أحكام دار الحرب التي أجراها الفقهاء السابقون على بلاد المحاربين.. وأن فهمه للجهاد في سبيل الله مغرض ومرفوض، وأنه فيه مبتدع مجانب لآيات القرآن الكريم... وأن سيد قطب كان خاضعاً في هذه الاجتهادات لحالته النفسية المريضة، ونظرته الضيقة المحدودة، ووضعه الخاص في السجن والزنزانة والتعذيب المستمر، وأن سيد نتيجة لذلك متعصب متزمت متطرف انعزالي مدمر إرهابي... وأن تفسيره «في ظلال القرآن» جاء ثمرة لهذه الأفكار، وميداناً لهذه الاجتهادات والنظرات، وأنه من ثم يعتبره مدرسة للإرهاب أو التعصب أو السلبية والانعزال...

ولو قال هذا «الهراء» أعداء الإسلام من العلمانيين واليمينيين واليساريين لهان الأمر وخفت المصيبة، ولكنه يقوله ويردده أناس يزعمون أنهم «ورثة» أهل السلف

وعلم السلف وأدب السلف، و«حملة» لواء الإسلام والدفاع عنه وتصحيح فهم وعقيدة المسلمين اليوم. . . . كما يردد بعضه أناس يدعون أن لهم قدماً راسخة في مجال الدعوة والحركة والعمل الإسلامي الجهادي، وأنهم أبصر من سيد بهذه المجالات، وأنفذ نظراً منه في هذه الحقائق والاجتهادات، وأصوب منه في تحديد معالم الطريق إلى الله. . .

وقد ساءتنا ـ والله ـ هذه الاتهامات والشبهات، وآلمتنا الأحكام الظالمة التي صدرت عنها، وأحزننا كثيراً هذا التشويه المغرض المتعمد لصورة سيد قطب ولظلاله عند المسلمين. . ولا ندري كيف يختار هؤلاء علماء أعلاماً للفكر الإسلامي ذوي قدم راسخة في الفهم والعلم، وأثر ملموس في الأجيال، يختارونهم دون سواهم للإشاعات والشبهات، ويجعلونهم هدفاً لسهامهم. ونتساءل من هو المستفيد من كل ذلك أو من هو الذي يجني ثمار تشكيك الأجيال الإسلامية من الشباب العامل المجاهد بعلمائها وقادتها ومفكريها على طول التاريخ الإسلامي، ويجعل صورتهم «تهتز» وتتأرجح وتتلاشى أمام أنظار هذه الأجيال. . وفي نفس الوقت يتم «النفخ» في أقزام ممسوخة ظهرت في التاريخ الإسلامي ـ في القديم والحديث ـ ويكبر حجمها لتبدو في ثياب العمالقة، وتظهر بمظهر البطولة والأصالة والإصلاح والريادة. . . من هو المستفيد من كل ذلك؟ ومن هي اليد الخفية التي تحرك هؤلاء المبغضين والشانئين، وتوحي لهم بما تريد، ويردد هؤلاء بسذاجة أو خبث ومكر ما تريد؟. ولماذا تنصب الشبهات والاتهامات على الأعلام الرواد في تاريخ الإصلاح الإسلامي من أمثال: الطبري والأشعري والرازي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وحسن البنا والمودودي وسيد قطب. . . وغيرهم؟ وإذا سقطت منزلة هؤلاء عند الأجيال والشباب الإسلامي فمن يبقى لهم؟

أردنا في هذا الكتاب أن نضع «في ظلال القرآن» في الميزان، لنبين للمسلمين ما له وما عليه، ولننظر في مدى صحة كثير من الإشاعات التي ترددت ـ وتتردد ـ في الأوساط الإسلامية حوله، ونري هذه الأوساط مدى صدق الأحكام التي صدرت ـ وتصدر ـ من بعض من يجعل نفسه «خصماً وحكماً» في نفس الوقت، والتي أدان بها الظلال، وحكم على صاحبه بما راق له. . لنبين مدى تمتع هذا «الخصم الحكم» بالصفات الضرورية لعمله، وتوفر المنهجية في عمله، والصدق في نظرته. . .

بدأنا الكتاب بتمهيد لازم له، سجلنا فيه أهم الضوابط التي لا بدّ من توفرها لدراسة التفاسير وتقويمها والحكم على أصحابها. . ليظهر لنا الخطأ في أي دراسة أو تقويم أو حكم لم تتوفر فيه هذه الضوابط، وليعرف القراء ماذا يقبلون وماذا يرفضون مما يسمعون أو يقرأون. . .

وسجلنا في الفصل الأول أهم الأخطاء التي يقع بها بعض من يتعاملون مع الظلال، أو يقرأون فيه، والتي نرى أن كثيراً ممن اتهم الظلال أو حكم عليه وقع في خطأ أو أكثر منها، والتي نرى أن زوالها كفيل برد ونقض وسقوط كثير من الشبهات والاتهامات والإشاعات. . .

وتحدثنا في الفصل الثاني عن عقيدة سيد قطب، وطال حديثنا فيه لأنه طال الحديث عنها: بينا منهجه في أخذ العقيدة، ورأيه في دور العقل في فهم العقيدة، وفي طريقة القرآن في عرض العقيدة، ولاحظنا أنه أخذ عقيدته من الكتاب والسنّة وفهم الصحابة والتابعين فكانت عقيدة «قبل الخلاف» المذهبي والكلامي بين فرق المسلمين. . وأنه كان سلفي المنهج في أخذ العقيدة، وأن هذه «السلفية» لا تزول بسبب وقوعه في خطأ ـ أو أخطاء جزئية في العقيدة. وبينا أن الخطأ مغفور معفو عنه حتى ولو كان في العقيدة، وأوردنا الأدلة على ذلك من أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ ومن واقع الصحابة الكرام، ثم تحدثنا عن موقف سيد من علم الكلام، ومن زيادة الإيمان ونقصانه، ومن وحدة الوجود، ومن خبر الآحاد في العقيدة، ومن إثبات صفات الله، ومن تأويلها أو عدمه، وفرقنا بين تأويل وتأويل، واستقرأنا كلامه حول هذا، وسجلنا رأيه الأخير الذي استقر عليه والذي يتفق فيه مع فهم السلف الصالح ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ.

أما الفصل الثالث فقد خصصناه للحديث عن بعض المصطلحات الإسلامية التي وردت في الظلال، والتي كانت ميداناً لكثير من الشبهات والإشاعات والأحكام. مثل تعريف سيد للألوهية والربوبية، ومناداته بالحاكمية، وكلامه حول الجاهلية، وتحديده للعزلة والمفاصلة. . واعتمدنا على كلامه الصريح في الظلال وكتبه الإسلامية الأخرى ـ حول ذلك.

وناقشنا في الفصل الرابع اتهام سيد بتكفير المسلمين، ونقلنا كلامه في من يكفرهم ومن لا يكفرهم، وأوردنا روايات منه بعدم تكفير جماهير المسلمين،

وبينا أنه أول من أطلق شعار «نحن دعاة ولسنا قضاة»..

وحددنا في الفصل الخامس موقف سيد قطب من الفقه الإسلامي، وناقشنا من اتهمه بعداوته.. فبينا نوع الفقه الذي كان يتحدث عنه، والذي يطالب بتأجيل البحث فيه وليس إلغائه ورده، وتحدثنا عن نظرته إلى الفقه كله - عبادات ومعاملات - على أنه عبادة لله، وعن معنى اصطلاح «فقه الأوراق» و «فقه الحركة» عنده... ثم تحدثنا عن رأيه في دار الإسلام ودار الحرب وعن اتفاقه مع الفقهاء السابقين في ذلك، وعن فهمه للجهاد، وقوله «بالمرحلية» في أحكامه، ومنعه النسخ في آياته التي رتبت تلك الأحكام، وأشرنا إلى اتفاقه في هذا الفهم وهذه المرحلية مع علماء سابقين في التفسير وعلوم القرآن..

وبعد هذه المناقشة في هذه الفصول وقفنا عند المرحلة النهائية من البحث، وهي وضع الظلال في الميزان لنسجل أهم المآخذ عليه، وأهم السمات التي توفرت له.. وحرصنا أن يكون الميزان شرعياً، له كفتان، واحدة للمآخذ والملاحظات، والثانية للمزايا والسمات..

فتحدثنا في الفصل السادس عن أهم الملاحظات على الظلال، والمآخذ التي قد تؤخذ عليه.. قدمنا بين يدي هذه المآخذ بالحديث عن مكان وجودها، وترتيبها بالنسبة للحسنات أو المزايا، وأثرها على الظلال سلباً أو إيجاباً. ثم أوردنا أهم هذه المآخذ باختصار.

أما الفصل السابع فقد أوردنا فيه أهم السمات التي توفرت للظلال، والتي اكتسب بسببها منزلة خاصة في الفكر الإسلامي المعاصر.

وأخيراً جاءت خاتمة الكتاب التي سجلنا فيها أهم المزايا التي برزت فيه الظلال.

إننا نقدم هذا الكتاب للقراء والباحثين والدارسين، ونرجو أن يحقق ما كنا نصبو إليه منه، وأن يجد فيه هؤلاء الاخوان الكرام - على اختلاف وجهات نظرهم - شيئاً من الفائدة: وأن يحصلوا منه على شيء من النفع. فإن راق لهؤلاء الاخوان ما وجدوه فيه، فأرجو أن يكرموا كاتبه بدعوة صالحة، وإن خالف بعض هؤلاء الاخوان الكاتب في بعض ما أورده فأرجو أن يدعو له بالغفرة، وأن يتقوا الله في عرضه ودينه، فلا يقعون فيه غيبة وغمزاً ولمزاً، ولا يجعلونه مناسبة لكسبهم الآثام

والخطايا، بل يتكرمون عليه بإهداء ملاحظاتهم ومؤاخذاتهم له، ليحصلوا على أجر النصيحة والدلالة على خير أو هدى. . .

ونسأل الله أن يعصمنا من فتنة القول والعمل، ومن شهوة التعصب والهوى، وأن يجعلنا مع الحق دائماً، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب الله له النفع عند الناس، والقبول عنده سبحانه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ماله وصحبه وسلم

٢/٢/١٩٨٥ م
١٢/٤/١٤٠٥ هـ

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

تمهيد
ضوابط لتقويم التفاسير

يقع بعض دارسي التفاسير في أخطاء كثيرة، حيث لا يدرسون التفسير الذي بين أيديهم دراسة جيدة، ومن ثم يحكمون عليه حكماً خاطئاً، ولا يقفون على حقيقة رأي المفسر في بعض القضايا والمسائل، فينسبون إليه ما لم يقله، ويقوّلونه ما لم يثبته في تفسيره، ولا يعرفون منهجه ولا طريقته في التفسير، ولا يعرفون هدفه منه... ونتيجة لذلك يخرجون من هذه الدراسة بنتائج خاطئة، وأحكام ظالمة، ودراسة مشوهة للتفسير ولصاحبه..

والسبب في هذا كله هو عدم مراعاتهم المنهج العلمي في الدراسة، والموضوعية في البحث، والنزاهة في الحكم، والأمانة في النقل.. أو بمعنى آخر عدم مراعاتهم الضوابط المنهجية الضرورية للدراسة التي تُحقق لها العلمية والموضوعية والأمانة والنزاهة..

ولذلك رأيت من الضروري الإشارة الموجزة إلى أهم هذه الضوابط، وجعلها تمهيداً لهذا الكتاب، لتكون ضوابط لنا نلتزمها في تقويمنا للظلال، بذكر ما له وما عليه...

وأهم هذه الضوابط ما يلي:

١ ـ المعرفة التامة لعصر المفسر، ومظاهر الحياة فيه بمختلف مجالاتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإسلامية.. لأن المفسر الذي يعيش عصره ويتفاعل معه ويتأثر به، يقبل على تفسير القرآن لأهداف خاصة لها صلة بعصره وقضاياه ومشكلاته، ويركز على مسائل تهم

مجتمعه وأمته، ويتناول بعض الأفكار والاعتقادات والمذاهب التي تنتشر في عصره... ولذلك لا بدّ للدارس أن يذهب إلى المفسر ليعيش معه عصره ويتفاعل معه، لا أن يفعل العكس، لأن سلخ المفسر من عصره وإحضاره إلينا ليعيش عصرنا، أو محاكمته لمقاييس عصر آخر ـ سبقه أو لحقه ـ معناه سلخ هذا المفسر من علمه وثقافته وأفكاره واهتماماته، وهذا يقود إلى الخطأ في البحث.. والظلم في النتائج والأحكام..

٢ ـ المعرفة التامة لشخصية المفسر: بدراسة مراحل حياته المختلفة، ومظاهر التأثر والتأثير عليها فيها.. ثم معرفة خلفيته الفكرية والتصورية والثقافية، بالوقوف على عقيدته وأفكاره، والمجال العلمي الذي يتخصص فيه أو يجيده، والمدرسة التفسيرية التي ينتسب إليها.

ومن الضروري كذلك الوقوف على سلوك المفسر وأخلاقه، وصلته العملية بإسلامه، وحركته بدينه، وجهوده في الدعوة والإصلاح، وجهاده في سبيل الله..

٣ ـ الوقوف على أهداف المفسر من تفسيره، وضرورة استخراجها من تفسيره ـ وغيره من مؤلفات المفسر ـ لأن الأصل في المفسر أن تكون له أهداف يريد تحقيقها من تفسيره، والهدف يحدد المنهج، والمنهج يوضح الطريقة، والطرقة تعرض الأفكار والآراء والمسائل. وإغفال الهدف من قبل الدارس يوقعه في أخطاء في البحث والتقويم..

٤ ـ الوقوف على منهج المفسر كاملاً، وتحديده بدقة وأمانة وموضوعية، ثم بيان طريقته في تطبيق قواعد المنهج، وتحقيق أهدافه من تفسيره، وعرض أفكاره وآرائه، وموقفه من مختلف قضايا وموضوعات التفسير.. والوقوف على مدى تذوقه للنص القرآني وصلته به ونظرته إليه.. ولكل مفسر إشارات ولطائف وعبارات مبثوثة في ثنايا تفسيره تعين الباحث الدارس على تحديد منهجه وتوضيح طريقته...

٥ ـ الاطلاع الكامل على نتاج المفسر ومؤلفاته، وترتيبها حسب تسلسلها

التاريخي، وبيان موضع تفسيره فيها، وذلك بهدف الوقوف على حقيقة أفكار المفسر، وتحديد رأيه الأخير الذي استقر عليه في بعض القضايا والمسائل.. إذ أن المفسر ـ أو الباحث عموماً ـ يستمر في دراساته واطلاعه، وفي تبديل رأيه في بعض المسائل على هدي مكتسباته العلمية الجديدة، وتغيير موقفه من بعض القضايا، وكثيراً ما نراه يتخلى عن رأي له سابق في المسألة أثبته في مؤلف له سابق، والباحث الذي يطلع على مؤلفات المفسر، ولم يحسن تريب أفكاره وآرائه، يظلم المفسر ظلماً فادحاً عندما ينسب له رأياً تخلى عنه في كتاب لاحق...

٦ ـ الدراسة الشاملة الواعية الفاحصة المتأنية المتكررة للتفسير، وأؤكد على كل صفة وردت في هذا الضابط، وأهمية توفرها للدراسة، وفي هذه الدراسة لا بدّ أن يجمع الدارس كلام المؤلف في المسألة الواحدة من المواضع المتفرقة في التفسير ـ وإن تكرر ـ لأنه لن يخلو من إضافة يضيفها المفسر على الموضوع..... كذلك لا بدّ للدارس أن يستخلص رأي المفسر في المسألة الواحدة بعد جمع كلامه المتفرق، مستخدماً في ذلك أدق مناهج البحث العلمي في الجمع بين الأقوال المتعارضة حتى لا يظلم المفسر وينسب إليه رأياً لم يقله أو تخلى عنه..

٧ ـ الموضوعية في البحث: بأن يسير مع المفسر حيث سار، ويصحبه في رحلته الطويلة من خلال التفسير، وأن تكون نظرته إلى المفسر متصفة بالتوسط والاعتدال والاتزان. فلا يغالي في النظرة إليه إلى درجة العصمة والتقديس، ولا يبالغ في النظرة الأخرى إلى درجة تعمُّد التنقيص والتشويه.. فلا يعميه حبه له عن مآخذ تؤخذ عليه، والإشارة إلى أخطاء وقع فيها، ولا يعميه تعصبه ضده عن مزاياه وحسناته. بمعنى آخر ينظر إليه بعينين إسلاميتين مبصرتين عادلتين، ومنظار عادل يريه كل الأمور والمسائل. وقديماً قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

٨ ـ أن يكون هدف الدراسة بيان الحق في المسألة، وبيان الصواب في القضية ولا يكون هدفها تتبع الأخطاء وتصيد العيوب، وجمع المآخذ والسقطات، والخروج من هذا بحكم جائر على المفسر وتفسيره، أو دعوة ظالمة لإلغاء تفسيره وطرحه وإهماله، وإخراج المفسر من عداد العلماء.

وهذا هدف مرفوض يدل على انحراف في تفكير الدارس للتفسير، ومرض في نفسيته، واعوجاج في شخصيته.

٩ ـ إن وقوع المفسر في أخطاء أمر طبيعي، لأن النقص من سمة البشر، ولا معصوم إلا رسول الله ـ ﷺ ـ ولا يجوز أن ننزه أي مفسر أو دارس عن الأخطاء، ولكن هذا شيء، وتصيدها وتكبيرها والحكم على المفسر بسببها شيء آخر.. إن الذي يفعل هذا يستخدم منظاراً أسود قاتماً لحاجة في نفسه هو.

لا بدّ من بيان الحسنات والثناء على صاحبها بسببها، وتكبير المزايا والإشادة بها، ثم بيان المآخذ والأخطاء وإعطائها حجمها وبُعدها فقط، والحديث عنها بالأدب الإسلامي والمنهجية الموضوعية الذي علمنا إياه سلفنا الصالح ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ ثم محاولة الاعتذار عن صاحبها.. ولا يكون وجود هذه المآخذ والأخطاء داعياً للتشهير بالرجل واتهامه في دينه ومنهجه وأهدافه، وطرح عمله وأفكاره وجهوده.. وكم وقع السابقون من العلماء والدعاة في أخطاء غير مقصودة، وبقي لهم اعتبارهم وريادتهم ومنزلتهم..

لا بدّ من سعة الأفق وسماحة النظر في النظر إلى الأخطاء التي توجد في التفسير، فالمهم هو سلامة المنهج ونبل المقصد واستقامة الطريق، والخطأ العرضي غير المقصود يغتفر بعد ذلك.

ولا بدّ من الإشارة إلى الأخطاء الموجودة، وبيان المآخذ التي أخذها على المفسر مع الاحترام والتقدير والمودة والتوقير، والدعاء والاستغفار له. ويتعامل معه من خلال النص القرآني الذي يبين نظرة

خلف الأمة الصالحين إلى سلفها المؤمنين «والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.»[1].

١٠ ـ عدم محاكمة المفسر إلى مدرسة خاصة في التفسير. أو صورة معينة للتفسير، أو نموذج واحد للتفسير، ومن ثم طرح ذلك التفسير ان لم يتفق مع ذلك النموذج الخاص أو المدرسة الخاصة، كذلك عدم محاكمة المفسر إلى مذهب كلامي أو فقهي أو فكري معين، وإلغاء كلامه وتخطئته إن لم يتفق مع ذلك المذهب... ولهذا لا بدّ للباحث أن يحاكم المفسر وتفسيره إلى الحق الأصيل المتمثل في النصوص الصحيحة الصريحة من القرآن الكريم والحديث الشريف. فإذا ما وافق المفسر هذا الحق الذي فهمه السلف الصالح من هذه الأمة فلا يزيده تزكية أو اعتباراً أن يوافق هذا المذهب أو ذلك، ولا هذا العالم أو ذلك.. كما لا يضيره أن يخالف هذا المذهب أو ذلك، أو هذا العالم أو ذلك أيضاً.. لا يجوز اعتبار كلام الناس وفهمهم وآرائهم البشرية القاصرة أصلاً يحاكَم إليه العلم والأفكار والمعارف، فالأصل في هذا الدين هو كتاب الله وسنّة رسوله ـ ﷺ ـ.

١١ ـ يجب تحقق الدقة في الفهم، بحيث يطيل الباحث النظرة، ويستوعب الفكرة، ويقلب وجوه الرأي، ويعيد المحاولة أكثر من مرة إذا استغلق عليه أمر، أو صعب عليه فهم عبارة أو مسألة للمفسر، حتى يمكنه استيعاب المسألة، وذلك حتى لا يظلم المفسر وينسب إليه رأياً لم يتبناه، أو يقوِّله ما لم يقله.. وإذا جاء دور النقل لكلام المفسر فلا بدّ من توفر الأمانة العلمية في النقل، بنقل عبارته كاملة، وفهم ما يقصده فيه، وملاحظة السياق الذي وردت فيه، والوقوف على ما قبلها وما بعدها، واعتبار هذا في دلالتها، ولا يقتطعها من سياقها، ويجزئها ليستشهد بها على ما في نفسه من ظلم أو اتهام أو تنقيص للمفسر. وإذا

---

(١) الحشر: ١٠.

تكرر كلام المفسر حول الموضوع الواحد وتضارب، فلا بدّ من جمعه كاملاً ثم النظر فيه بموضوعية ومنهجية وعلمية كما بينا في الضابطين الخامس والسادس من هذه الضوابط.

١٢ ـ النزاهة والعدالة في الحكم، والمنهجية الموضوعية في التقويم، وطرح الهوى جانباً سواء المبالغة في جانب الحب أو جانب البغض. وليكن رائده في هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، إعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2].

لا بدّ للباحث الذي يريد أن يضع التفسير في الميزان ويحكم لصاحبه أو عليه، أن يكون ميزانه شرعياً عادلاً نزيهاً، له كفتان: واحدة للمزايا وأخرى للمآخذ، ولا يجوز أن يكون ميزانه بكفة واحدة فقط لا يضع فيها إلا الحسنات، أو لا تعرف إلا المآخذ.

كما أنه لا بدّ أن يخرج بعد ذلك التقويم بحكم عادل، ويكون تقويمه صحيحاً سليماً عادلاً. فيعرف مقدار الحسنات والمزايا في التفسير، وقيمته بسبب توفرها، ومقدار المآخذ والأخطاء ومكان وجودها ـ في المنهج أو الطريقة، في الهدف أو التصور والالتزام، في أثناء السير أو في البواعث عليه ـ ثم يعرف مقدار تأثر التفسير بها، أو تأثيرها فيه، ثم محاولة تقويم التفسير بعد ذلك ليعرف ما له وما عليه.

هذه هي أهم الضوابط التي أراها ضرورية لأي باحث أو دارس لأي تفسير أو مفسر، لضمان سلامة المنهج ودقة الخطة، وأمانة التقويم وصحته،

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المائدة: ٨.

أقدمها بين يدي هذا الكتاب الذي أجعل فيه الظلال في الميزان لتقويمه، راجياً أن تكون دراستي ـ في الكتب السابقة ـ قد راعت هذه الضوابط، وراجياً أن يوفقني الله في تقويمي وفي ميزاني، فلا أظلم سيد قطب في حكمي له أو عليه.